(٣٣)

نظرات في سورة «الأنعام»

العدد (١٠٩) محرم (١٣٩٤هـ) يناير (١٩٧٤م)

سورة «الأنعام» من السور الطوال التي نزلت بمكة تقيم قواعد الإيمان، وتنصب حوله البراهين، وتجادل عنه الأعداء والجاهلين.

وأسلوب السورة يتسم بالأخذ والرد، والحوار الحي، والنزول إلى أرض الواقع، واستخراج كل ما لدى المشركين من شبهات ومزاعم.

ولذلك تكررت كلمة «قل» للنبي- عليه الصلاة والسلام- أربعا وأربعين مرة يتنزل بعدها التوجيه الإلهي إعلانا للحق وخذلانا للباطل.

وسورة الأنعام بهذه الخاصة من أشد السور قمعا للضلال، وإخمادا لأنفاسه، وإعلانا لمنار التوحيد وجمعا للأفكار والأفئدة عليه.

ونبدأ بإلقاء «نظرة» على مراحل الصراع بين الإسلام وأعدائه في هذه السورة المباركة.

إن الحق الغريب في البيئة العاتية يبدأ ضعيف الشأن قليل الناصر يلقاه الأقوياء بالنظر المتجهم، ويتناولونه بالسخرية الظاهرة، ويرفضون رفضا شديدا أن يدخلوا فيه بل أن يسمحوا له بالسير.

والله عز وجل في هذه السورة يوجه الحديث إلى الطرفين المتنازعين فيطلب من المشركين أن يحذروا المستقبل وأن يتأملوا في تاريخ الماضين لتتحسم سخريتهم: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ **(الأنعام: ١٠، ١١)**.

وفي الوقت الذي يُنَبَّهُ المشركون فيه إلى مصيرهم يقال لصاحب الرسالة ومن معه من المؤمنين: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ **(الأنعام:٣٤)**.

أي اثبتوا أيها المؤمنون، وتحملوا صنوف الأذى، وصابروا الليل الطويل حتى يطلع فجر النصر- ولا بد أن يطلع - فإن كلمات الله لعباده وقوانينه في خلقه لن تتغير، ويمكن استقراء الصراع القديم بين الهدى والضلال لتعرف هذه الحقيقة.

بيد أن حبل النزاع طويل ويظهر أن طوله يستغرق أعمارا كاملة، وأن النتيجة المرتقبة تتحرك ببطء رهيب.. بطء يغري الكافرين بالتطاول والصلف، وتكاد معه أرواح المؤمنين أن تزهق.

وتستطيع أن تتبين موقف الفريقين في هذا الحوار ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ ...﴾ **(الأنعام: ٥٧، ٥٨)**.

إن الله عز وجل يعطي المبطلين فرصا واسعة ليؤمنوا إذا أرادوا، ويبدو أن سعة هذه الفرص لا تزيدهم إلا ضراوة، ولقد راقبت سيرة المشركين مع النبي عليه الصلاة والسلام فوجدت أن المشركين أنفسهم هم الذين فتلوا الحبال التي شدت حول أعناقهم وأجهزت على حياتهم.

إنهم هم الذين صنعوا معركة بدر وكانوا قادرين على العودة من حيث جاءوا بعد نجاة قافلتهم، لكن مشاعر الكبر التي أدارت رؤوسهم وترجم عنها أبوجهل في كلمته الحمقاء «لا نعود حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور وتغني لنا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا».

هذه الكلمة هي التي ألحقت بالشرك أول هزيمة قاتلة، وأحنت رأسه إحناء مذلا إلى آخر الدهر، وكما فعل المشركون بأنفسهم ذلك في بدر كرروا صنيعهم قبيل الفتح الأعظم ليعطوا المسلمين حق دخول مكة بعدما نقضوا العهد المبرم ورفضوا الهدنة الممتدة.

إن الخط الذي رسمه القدر كان فوق فكر البشر، وذلك هو السر في قول الله لنبيه:

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **(الأنعام: ٥٨)**.

إن على أهل الحق شيئا واحدا.. أن يعيشوا به وأن يعيشوا له.

أما كيف يديل الله لهم من عدوهم فهذا ما استأثر العلم الإلهي به، وتعجز القوى عن دركه وارتفاع أهل الحق إلى مستواه في خلقهم وسلوكهم شيء صعب ولكن ما منه بد.

ثم هم بعد هذا الارتفاع لا بد أن يخضعوا لسنن الله الكونية التي تتناول أولياءه وأعداءه على سواء، ويُعَدّ التعرض لها جزءا من الاختيار الشامل في قصة الموت والحياة.

وتأسيسا على ذلك يأمر الله نبيه أن يفهم المؤمنين بأنه «بشر» لا يملك طاقات فوق العادة، وأنه يتعرض مع جماهير المؤمنين لتكاليف الصراع الخالد بين الإيمان والكفر، فلا هو صاحب مال لا ينفد ولا هو مدرك للغيوب، ولا هو ملك متخفف من خواص المادة الإنسانية.. إنه صاحب دعوة اصطفاه الله لفتح البصائر المغلقة وهداية الجماهير التائهة.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ **(الأنعام: ٥٠)**.

وقد قضت الحكمة العليا أن تغير الظروف التي يعيش البشر فيها تغييرا

يرغم على الانتباه لما يطلب منهم، فإن الناس إذا ألفوا النعماء قلّ تقديرهم لها وقلّ شكرهم لمرسلها الكبير وقلّ اكتراثهم بحقه وقلّ استماعهم لرسله.

ومن ثم فإن الله يسلبهم ما يطغيهم لعلهم يعتدلون!

وقد صح أن النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى كبرياء قريش وطول صدودها دعا الله عليهم فقال: «اللهم سبعا كسبع يوسف!»

أي أرسل عليهم سبع سنين عجاف تكسر كبرياءهم وترد إليهم صوابهم.

وهذا علاج حق فإن الذاهب بنفسه قد يتواضع ويعقل إذا فقد ما غره من مال أو جاه.

وفي هذه السورة الكريمة يقرر الله جل شأنه هذه السنة الحكيمة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ **(الأنعام: ٤٢)**.

والبأس سوء الأوضاع الاقتصادية، والضراء سوء الأحوال الصحية.

وليس أضرى بالأفراد والجماعات من هذين البلاءين، وجدير بمن فقد صحته وماله أن يجأر إلى الله تائبا طالبا النجدة.

ومع ذلك فإن هناك شعوبا بليدة تنزل بها القواصم فما تطلب من الله رفعها وما تقف بساحته منيبة ضارعة بل تبقى على غوايتها وكفرها ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ **(الأنعام: ٤٣)**.

وهذا لون خطير من موت القلوب وعصف الشهوات بالأمم، وقد كان المفروض أن الآلام ترد الناس إلى بارئهم كي يحجب سخطه عنهم فإذا أوذوا وظلوا في عماهم فمعنى ذلك أن الفساد تغلغل في كيانهم واستبد بزمامهم.

وقد يطول بالأمم العناء- والحالة هـذه- كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (**المؤمنون: ٧٥، ٧٦، ٧٧**).

لكن سورة الأنعام تذكر لونا آخر من مكر الله بالأمم، فإن الله يرفع العذاب النازل بالأمم الشاردة ويعيد إليهم ما فقدوا من نعمة ومتاع، بل ربما أرسل اليهم أكثر مما ألفوا ليزدادوا ترفا وشرها. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (**الأنعام: ٤٤، ٤٥**).

إن قطع دابر «المتكبرين» بعدما طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد نعمة تقر بها العيون وتنشرح بها الصدور وتتبادل عليها التهنئة ويشكر عليها رب العالمين.

وظاهر من وصف القرآن لمراحل التغيير من رخاء إلى شدة ومن شدة إلى رخاء؛ أن الزمان طويل، وأن أهل الحق خلال أيامه ولياليه يجب أن يصبروا ويصابروا «والعاقبة للتقوى». نعم زمان طويل يبدأ فيه النضال والباطل قوي مستقر والحق ضعيف منكور، ثم تنشب الحرب النفسية والدموية لتتغير بعدها الأوضاع فيقوى الحق ويضعف الباطل.. بيد أن هذا التغيير يقطع من الزمن طريقا طويلا، وإلى قبيل النهاية لا تؤذن الأمور بانهيار في جبهة الضلال، بل قد تظل مرهوبة الجانب محذورة الشر.

ولذلك فإن المعادن الهشة تتفتت على مراحل الطريق، وينجم النفاق، ويؤثر الضعاف والجبناء أن ينجوا بأنفسهم ويستريحوا إلى دنياهم.

من أجل ذلك يأمر الله نبيه بالثبات على الحق وتثبيت المؤمنين عليه ويكشف له عورات الشرك ومقابحه لينفر العقلاء منها ويفروا من طريقها

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ...﴾ **(الأنعام: ٧١)**

فليبق الحيارى ضالين عن رشدهم وليلزم المؤمنون صراطهم المستقيم مهما تجشموا من مشقات ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ **(الأنعام: ٧١، ٧٢)**.

لكن متى ينتهي هذا الصراع؟ وترتفع راية الحق؟ لا ندري! ولا بد من نهاية له على أية حال ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ **(الأنعام: ٦٧)**.

وعلى أصحاب الإيمان طال المدى أو قصر أن يعيشوا له، وأن يعيشوا به. وهذا المعنى هو الذي سيطر على المسلمين في العصر المكي فتكوَّن منهم جيل اعتنق الإسلام وربط به سفره وإقامته، وتعبه وراحته، وصداقته وخصومته وحياته ومماته.

وقد قررت سورة الأنعام ذلك في خواتيمها لتجعل فيه منهجا خالدا لكل جيل مكافح إلى قيام الساعة.

وعلى صدر الطريق نلمح خاتم الأنبياء يتلو ما أمر الله به ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ **(الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)**.. أجل إنه الأول تجردا لله وتبتلا إليه ودأبا على عبادته وتسبيحا له وتمجيدا وركوعا وسجودا، ثم حماية لهذا الدين بالنفس والمال فالحياة لله والموت في سبيله.

وعندما استوحش التوحيد في زحام العالم وطمعت الخرافة أن تأتي عليه من القواعد، نهض الإنسان الكبير «مُحمد بن عبد الله» ورمى بكل ما يملك من طاقات في المعركة البائسة المضطربة فإذا الشيطان يخور.. وإذا الشرك السافر والمقنع يتقهقر.. وإذا التوحيد الخالص يتقدم ويشيع.. وإذا العدالة

في الحساب والسلوك تتقرر ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ **(الأنعام: ١٦٤)**.

إن الخلاف الديني سوف يبقى ما بقيت الأرض ولن يبت فيه إلا الله وحده! وستنشأ الأجيال الجديدة وهي في مهدها حاملة مظاهر هذا الخلاف.

والمهم أن يكون المؤمن بالله ورسوله رفيع اليقين والخلق معا، طاهر القلب والسيرة جميعا، مقتفيا أثر نبيه العظيم وهو يؤكد أن صلاته ونسكه وحياته ومماته لله جل شأنه، إن هزائم الحق في أغلب الأحيان تجيء من تفريط المؤمنين وهبوطهم دون هذا المستوى المطلوب فمن ولد مسلما ورزقه الله هذا الشرف فليعلم أنه مكلف بخدمة الحق وتزيين صورته وتنقية حقيقته، وحسن عرضه والقيام به وتلك هي الفريضة المنوطة بعنقه.

إنك لم تولد مسلما تفضل غيرك دون جهد مبذول وعبء محمول، بل قد يفضلك غيرك يوم تبتذل النعمة الموروثة وتتركها للضياع أو الامتهان.

في هذه السورة الجليلة نلمح منطق القرآن الكريم في بناء العقائد وغرس الإيمان وهو منطق بعيد عن التقعر، بريء من الغموض يقوم على وصف الله جل شأنه بما ينبغي له من نعوت الجلال والكمال، ويلفت النظر إلى آفاق الملكوت كي يدرك الإنسان عظمة ربه خلالها، وصدر سورة الأنعام يتسق مع هذا المنهج فقد بدأ الكلام بحمد الله خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور، ثم لفت القرآن الكريم النظر إلى تاريخ الأمم الأولى وموقفها من قضية الإيمان وكيف أن غفلتها هوت بها! وأن جحودها لنعمة الله أوردها شر الموارد.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ ﴾ **(الأنعام: ٦)**

بيد أن جماهير الناس ربما ضاقت بهذا المنطق ولم يعجبها أن تقاد من عقلها، ولا أن تستثار مواهبها العليا كي تؤمن، إنها تريد شيئا آخر، تريد خوارق للعادات تشد انتباهها أو تشبع فضولها أو تتجاوب مع الاتجاهات المادية في ذوقها وحكمها، والرسالة الخاتمة لا ترضى هذه النزعة ولا تحمدها.

ومن ثم فإن المنطق القرآني مضى في طريقه يحرك العقل الجامد ويطلب إليه أن يؤدي وظيفته العتيدة في البحث والموازنة والحكم.

والعرب في جاهليتهم أصروا على مقترحاتهم في ضرورة أن تسند الدعوة «معجزات حسية» وقاوموا النداء المتتابع بضرورة أن يفتحوا عيونهم إلى آيات الله في كونه وإبداعه في خلقه ودلائل عظمته المسطورة بين سمعهم وبصرهم.

ونحن نرى أن إصرار الجاهلية على موقفهم إنما نشأ عن عناد كريه، وجحد بكل ما يجب التسليم به من مقررات إنسانية محترمة. ولو أنهم أجيبوا إلى ما طلبوا ما اعترفوا بالحق ولا انقادوا له، وهنا نجد في سورة الأنعام مجموعة من النصوص تشرح هذه الحقيقة ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾**(الأنعام: ٧)** فهم لا يؤمنون ولو نزل عليهم كتاب من السماء يلمسون أوراقه ويحسون وجوده! وقد طلبوا أن يتحدث إليهم أحد الملائكة لكن كيف يتم هذا؟

إن البشر جهزوا بحواس محدودة لا تستطيع أن ترى الماديات إلا في حجم معين، وعلى بعد معين فكيف ترضيهم السماء ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ **(الأنعام: ٨)** أي أنهم سيسترسلون في عنادهم ويرفضون الإيمان بعد استجابة مطلبهم وعندئذ تعجل عقوبتهم وينزل بهم العذاب الأليم.

على أن ذلك كله مع قدرتهم على رؤية الملك في طبيعته النورانية، فإذا استحال ذلك وتجسد لهم الملك فإن الشبهات باقية والمماراة مستمرة ﴿... وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ **(الأنعام: ٩)**.

وتناولت سورة الأنعام الخوارق مرة ثانية في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(الأنعام: ٣٧)**.

أي أن الخوارق المطلوبة ليست مما يعجز القدرة العليا، ولكن الحكمة الإلهية فوق رغبات الطفولة، وعندما يريد الصغار ألا يكبروا.. وعندما تريد الإنسانية ألا ترتفع إلى مستواها العقلي، فإنه لا بد من إرغامها على الصعود والأخذ بيدها إلى أعلى وتكليفها أن تحترم العلم، ولعل ذلك السر في أن النبي عليه الصلاة والسلام قارن بين ما منح من معجزات، وما أجراه الله على أيدي المرسلين الأولين من آيات. ثم قال: «ما من نبي من الأنبياء قبلي إلا وأوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر وكان الذي أوتيته وحيا أوحي إلي.. فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».[١]

إن هذا الحديث يشعر بأن الله جل شأنه يريد أن يبني الناس إيمانهم على حسن البحث والنظر وصدق الفطانة والاستنباط لا أن يهملوا أفضل ما أوتوا، وينتظروا القوارع والخوارق كي يعرفوا ربهم.

والمرء عندما يجحد الخاصة التي رجح بها بقية الحيوانات ويريد أن يحيا بغرائزه البدائية وأفكاره الساذجة وحدها.. لا ينبغي أن يجاب إلى ما يشتهي، وهذا سر ختم الآية بقوله جل شأنه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتعود سورة الأنعام إلى تصوير لجاجة المشركين في طلب الآيات الحسية

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٨١).

وتعليق الإيمان على وقوعها، قال تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (**الأنعام: ١٠٩، ١١٠**).

ومن حقنا أن نتساءل عن قيمة هذا القسم من مشركين سووا بالله مخلوقاته وحلفوا أيضا على أنه لن يبعث أحدا وأن الدنيا هي الحس كله ولا شيء بعده.

إن هؤلاء المشركين كأنما يذكرون اسم الله من باب الاسترسال مع الخصم، أو كأنهم يقولون نقسم بالله الذي تزعمونه معشر المؤمنين وتتعلقون به.

أي قسم هذا؟

إن الأمر لا يعدو التشبث بما اقترحوه من قديم، أي إنهم ما زالوا متعلقين بالخوارق التي بنوا عليها إيمانهم، وهي إن جاءت فلن تؤسس في نفوسهم يقينا ولن تزحزحهم قيد أنملة عن جاهليتهم التي ورثوها وأوهامهم التي ألفوها.

وما الظن بقوم يقولون لله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (**الأنفال: ٣٢**).

أما كان حريا بهم لو كانوا مخلصين أن يقولوا: اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

ولكنها الطفولة البشرية كما قلنا هي التي دفعت إلى هذه المطالب دون تقدير لها، أو ارتباط بنتائجها.

ولا بد من أن نسجل هنا خطأ سرى في الفكر الإسلامي سريانا مستغرباً هو اهتمام المسلمين بالخوارق وربط الصلاح النفسي بها حتى أصبحت الولاية عند الجماهير لا مفهوم لها إلا وقوع الخوارق على أيدي الأحياء أو الأموات!

إن هذا الخطأ امتداد للطفولة البشرية التي أنكرها الإسلام على الجاهلين القدامى عندما تشبثوا بخوارق العادات وربطوا صدق النبوة بها، واستهانوا بقيمة العقل في تقديرها وإثباتها.

وعلماء الكلام.. بل علماء الأديان عموما لا ينكرون وقوع الخوارق، ولكنهم يرون أن هذه الخوارق الواقعة عديمة الدلالة على ما يزعم لها؛ إذ هي تقع من المؤمن والكافر والبر والفاجر، وفي كتب علم التوحيد عندنا تسميات شتى لخوارق العادات بحسب صدورها من الناس، ولم يقل أحد إن لهذه العجائب دلالة حاسمة أو غير حاسمة على صدق الإيمان وقرب المنزلة عند الله.

الولاية كما عرفها القرآن الكريم هي الإيمان والتقوى سواء حدث لصاحبها شيء من هذه العجائب أم لم يحدث!

وقد نبه المحققون إلى ذلك عندما قالوا: «لو رأيت إنسانا يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تشهد له بخير حتى ترى مسلكه مع الكتاب والسنة».

وهذا كلام جيد وهو يربط الكمال المنشود بالرقي المعنوي والاستقامة النفسية ولا يعطي ما وراء ذلك قيمة ما! إننا عندما نتدبر سورة يوسف نجد أنها تضمنت ثلاث رؤى كشفت عن المستقبل، فجاء تطبيقها صادقا كوضح النهار.

- أولى الرؤى الثلاث لنبي كريم المعدن حسن الدعوة إلى الله.
- أما الرؤييان الأخريان فهما لقوم لا يعرفون الله ولا يحسنون معاملته.

بعضهم كان سجينا وعاش بعد سجنه يسقي سيده الملك خمرا، والبعض الآخر كان ملكا غريبا على دائرة الإيمان ومنطقه.

وقد بنيت خطة الدولة الاقتصادية على رؤياه خمسة عشر عاما. وأحسبني لو صورت فكر المسلمين الآن لقلت: إنهم يحسبون الرؤيا الصادقة

أمارة على عظمة المنزلة عند رب العالمين ولو كان صاحبها لا يعرف صلاة ولا صياما، وقد لاحظنا ونحن نقرأ سورة الأنعام أنها زجرت المشركين زجرا شديدا لتطلعهم إلى الخوارق، وغفلتهم عن التدبر والوعي.

والسورة بهذه اللفتة الكريمة تريد أن تنبه إلى أن العظمة الإنسانية لها أصولها العتيدة وأبعادها المحددة. وإذا كان الله قد رزقنا عقلا فيجب على هذا العقل أن يبحث ويقضي.. والأديان إنما تستمد وجاهتها وتستحق القبول بما حوت من زكاة للنفوس ورشد للسلوك.. والأديان الفاشلة أو المهتزة القواعد تتحايل على إثبات صحتها وجمع الناس حولها بإطلاق الإشاعات عن خوارق وقعت لأحيائها أو موتاها.

وهذه الخوارق في الأغلب مفتعلة لا تعتمد على شيء.. إنما هي الخيال أو التوهم، ولو أن ما زعموه كان صحيحا ما دل هذا على شيء طائل، فإن الأديان تقوم على الصدق العقلي والنضارة الخلقية، وهذا ما طلبت منا سورة الأنعام أن نستيقنه وأن نبني عليه حكمنا.. هل معنى ذلك أن حياة «محمد» عليه الصلاة والسلام كانت خلوا من الخوارق؟ كلا!

لقد صحت «الأسانيد» أن جملة من الآيات الباهرة ظهرت في سيرة النبي الكريم، ورأت جماهير من الناس كيف زاد الطعام في يده وكيف نبع الماء من بين أصابعه وكيف هطل المطر توا استجابة لدعوته، وكيف... وكيف...

إن عشرات من هذه الآيات الحسية ثبتت له- عليه الصلاة والسلام- ولكن هذه الآيات لم تعتبر سنادا لإثبات النبوة ولا كان بها التحدي إلى آخر الدهر.

لقد اعتبر أمرها ثانويا بالنسبة إلى القرآن الكريم.. الكتاب الذي أحيا الفكر وأيقظ القلب وأنهض الأمم ودفع الأجيال في طريق حضارة يانعة وربط بين الناس وربهم ربطا يتجدد على مر الأيام إذ لا يزال هذا الكتاب منذ نزل إلى يوم الناس هذا.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، صانع الإيمان الحر، وسائق العقول بطريق الاستدلال إلى معرفة ربها والانقياد له.

هذه السورة المكية حافلة بالدلائل التي تسوق الناس سوقا إلى الله، وتفتح الأبصار على الآيات الشائعة في ملكوته، والروائع التي بثها هنا وهناك تشهد بوحدانيته وعلوه ولطفه.

إن بعض المستشرقين والمبشرين تحدث عن الأسلوب المكي فقال: إنه عاطفي يعتمد على الإثارة أكثر مما يعتمد على التفكير، وتبعهم في ذلك سماسرة مستأجرون في ميدان الأدب والثقافة تحمسوا لهذه الأكذوبة وأخذوا يروجونها.. والقضية كلها دعوى تافهة، وسورة الأنعام- من بين السور المكية- مليئة بالبصائر التي تنير طريق الحق وتجلو الغشاوات عن سالكيه.

وكلمة «بصائر» في قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ (**الأنعام: ١٠٤**) هذه الكلمة واضحة الدلالة على العمل العقلي الذي يمزق الظلمات ويكشف الشبهات ويعرف الناس بربهم عن طريق السريرة الصافية والفطرة الواعية.

وعلى ما ألفنا في هذه السورة نسمع بعد كلمة «قل» سؤالا عن رب المكان يجيء على هذا النحو ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ (**الأنعام: ١٢**) أهو رب المكان وحده؟ لا، إنه رب الزمان أيضا ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (**الأنعام: ١٣**).

إن اليقين في تلك السورة يؤسس على النظر العقلي المتأمل المستنتج الذي يستعرض شتى الفروض ثم يرفض الخطأ ويقر الصواب، وإنك لترى ذلك في السياحة الفلكية التي تضمنتها هذه السورة لإبراهيم عليه السلام، وهو ينتقل من الكواكب إلى مكوكبها، ومن الشارق الغارب إلى من لا يغيب تجليه، ولا تنقطع قيوميته على العالم الرحيب ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾(**٧٥**).

ومن ثم نلحظ أن وصف الله في هذه السورة يجيء أحيانا بعد اسمه العلم الظاهر، وأحيانا بعد ضمير الغيبة، فيكاد الوصف البارز ينقل ضمير الغيبة إلى ضمير حضور وقد بدا ذلك من الصفحة الأولى في السورة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً...﴾(**الأنعام: ٢**)،

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُم...﴾(**الأنعام: ٣**)،

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ...﴾(**الأنعام : ٦**)،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ...﴾(**الأنعام : ٦٠**)،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ...﴾ (**الأنعام : ٩٧**)،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ...﴾(**الأنعام : ٩٨**).

ويظل الأمر كذلك حتى آخر السورة، فكما بدئت بضمير الغيبة الذي يبعث على الشهود ختمت به... ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (**الأنعام : ١٦٥**)

وهكذا تقف الإنسانية كلها بإزاء الاختيار الكبير الذي ينتظم جميع أفرادها.. تقف أمام ربها العدل الذي يكلف كل امرئ بقدر ما أوتي من إمكانات مادية وأدبية.

على أنه مهما تفاوت الذكاء البشري بساطة وعمقا، فلا يجوز أن يعمي عن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور.

